لجنة الشباب المسلم

«تأليف والترجمة والنشر»

غرض اللجنة المشاركة فى تكوين الوعى الإسلامى الرشيد عن طريق :

١ — نشر الكتب الإسلامية قديمها وحديثها .

٢ — ترجمة ما كتبه أهل الشرق والغرب عن الإسلام

٣ — مجابهة مشاكل العصر الاجتماعيـــة والسياسية والاقتصادية بأبحاث وافية ملائمة .

٤ — نشر تعاليم الإســلام بين الناس بإخراج طبعات شعبية رخيصة الثمن ، أنيقة الطبع . وإنشاء الندوات الفكرية . وإخراج مجلة إسلامية

المراسلات باسم :

محمد رشاد رفيق سالم عضو اللجنة والمسئول عن النشر

٩ شارع أبى بكر الصديق بمصر الجديدة .

جنة الشباب المسلم

الجهاد في سبيل الله

(معرب عن الأردية)

ابو الأعلى المودودي
أمير الجماعة الإسلامية باكستان

(٤)

عربه عن الأردية الأستاذ مسعود النـــدوى

معتمد ، دار العروبة للدعوة الاسلامية ، باكستان

بسم الله الرحمن الرحيم

الجهاد فى سبيل الله

لقد جرت عادة الافرنج أن يعبّروا عن كلمة « الجهاد » بالحرب المقدسة (Holy War) إذا أرادوا ترجمتها بلغاتهم . وقد فسروها تفسيراً منكراً تفننوا فيه ، وألبسوها ثوباً فضفاضاً من المعانى المموهة الملفقة ؛ وقد بلغ الأمر فى ذلك أن أصبحت كلمة « الجهاد » عندهم عبارةً عن شراسة الطبع والخلق والهمجية وسفك الدماء . وقد كان من لباقتهم وسحر بيانهم وتشويههم لوجوه الحقائق الناصعة أنه كلما قرع سمعَ الناس صوت هذه الكلمة (الجهـــاد) ، تمثلت أمام أعينهم صورة مواكب من الهمج المحتشدة ، مصلتةً سيوفها متقدةً صدورها بنار التعصب والغضب ، متطايراً من عيونها شرار الفتك والنهب عالية أصواتها بهتاف « الله أكبر » زاحفة إلى الأمام ، ما إن رأت كافراً حتى أمسكت بخناقه وجعلته بين أمرين : إما أن يقول « لا إله إلا الله » فينجو بنفسه ، وإما أن يُضرب عنقه ، فتشخب أوداجه دماً .

ولقد رسم الدهاة هذه « الصورة » بلباقة فائقة وتفننوا فيها بريشه المتفنن المبدع ؛ وكان من دهائهم ولباقتهم فى هذا الفن أن صبغوها بصبغ من النجيع الأحمر وكتبوا تحتها :

« هذه الصورة مرآة لما كان بسلف هذه الامة من شره إلى سفك الدماء ، وجشع إلى الفتك بالأبرياء » .

والعجب ، كل العجب ، أن الذين رسموا لنا هـذه الصورة وقاموا بما كان لهم من حظ موفور فى إبرازها وعرضها على الأنظار ، هم هم الذين مضت عليهم قرون وأجيال يتقاتلون ويتناحرون فى ما بينهم إرضاء لشهواتهم الدنيئة ، وإطفاء لأوار مطامعهم الأشعبيـة . وتلك هى حربهم الملعونة غير المقدسة (Un-Holy War) التى أثاروها على الأمم المستضعفة فى مشارق الأرض ومغاربها ، وجاسوا خلال ديارهم يبحثون عن أسواق لبضائعهم وأراض لمستعمراتهم التى يريدون أن يستعمروها ويستبدوا بمنابع ثروتها دون أصحابها الشرعيين ؛ ويفتشون عن المناجم والمعادن وعما تغله أرض الله الواسعة من الحاصلات التى يمكن أن تكون غذاء لبطون مصانعهم

ومعاملهم ؛ يبحثون عن كل ذلك وقلوبهم كلها جشع وشره إلى المال والجاه ، وبين أيديهم الدبابات المدججة وفوق رءوسهم الطائرات المحلقة فى جو السماء ، ووراء ظهورهم مئات الألوف من العساكر المدربة ، يقطعون على البلاد سبلَ رزقها ، وعلى أهاليها الوادعين طريقَهم إلى الحياة الكريمة ، يريدون بذلك أن يهيِّئوا وقوداً لنيران مطامعهم الفاحشة التى لا تزيدها الأيام إلا التهاباً واضطراماً . فلم تكن حروبهم فى « سبيل الله » وإنما كانت فى سبيل شهواتهم الدنيئة وأهوائهم الذميمة ومطامعهم الأشعبية . وإن تعجب فعجب حملاتهم وغاراتهم على شعوب وادعة آمنة لم يكن من ذنبها إلا أن الله قد أنعم عليها بمعادن وكنوز فى أرضها ، أو أنها كانت تملك تربة خصيبة تغل أنواعاً من الحبوب وخيرات الأرض . وإن لم يكن هذا ولا ذاك ، فبحسبها ذنباً أنها يمكن أن تكون سوقاً لبضائعهم نافقة ، أو مستعمرة لبنى جلدتهم الذين ضاقت عليهم أرضهم فلفظتهم . وأدهى من كل ذلك وأمرّ أنهم كثيراً ما يغيرون على بلاد آمنة مطمئنة بمجرد أنها تقع فى طريقهم إلى بلاد قد

استولوا عليها من قبل أو يريدون الآن أن يستولوا عليها ويأخذوا زمام أمرها بأيديهم .

هذه هي حال الذين يصمونا بالغزو والقتال — والذى سبق لنا من أعمال الفتوح والحروب قد مضت عليه أحقاب طويلة — أما أعمالهم المخزية هذه ، فلا يزالون يقترفونها ليل نهار بمرأى ومسمع من العالم المتحضر المتمدن . وأىّ بلادِ الله ، يا ترُى ، قد سلمت من عدوانهم ، وما تخضبت أراضيها بدماء أبنائها الزكية ؟ وأية هذه القارات العظيمة من آسيا وأفريقية وأمريكا ما ذاقت وبال حروبهم الملعونة ؟ لكن هؤلاء الدهاة رسموا صورتنا بلباقة منكرة ، وأبدأوا وأعادوا فى عرضها بشكل هائل بشع قد سحب ذيل النسيان على صورتهم الدميمة ، حتى لا يكاد يذكرها أحد بجنب الصورة المنكرة التى صوروا بها تاريخنا ومآثر أسلافنا . فما أعظم دهاءهم وما أبرعهم فى التزوير والتمويه . أما سذاجتنا وبله رجالنا فحدِّث عن البحر ولا حرج . وأىُّ بله أعظم من اغترارنا بالصورة المنكرة التى صوروا بها مآثرنا حتى كدنا

نؤمن بصحتها ومطابقتها للحقيقة ، وما دار بخلدنا أن ننظر إلى الأيدى الأثيمة التى عملت عملها فى رسم هذه الصورة المزورة ، وأن نبحث عن الأقلام الخفية التى تفننت فى تمويهها وزخرفتها . وقد بلغ من اغترارنا بتزويرهم وانخداعنا بتلك الصورة المموهة أن اعترانا الخجل والندامة ، وعدنا نعتذر إلى القوم ، نبدل كلام الله ونحرف الكلم عن مواضعه ونقول لهم « ما لنا وللقتال ، أيها السادة ؟! إنما نحن دعاة مبشرون ندعو إلى دين الله ، دين الأمن والسلام والدعة ، بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ نبلغ كلام الله تبليغ الرهبان والدراويش والصوفية ، ونجادل من يعارضنا بالتى هى أحسن بالخطب والرسائل والمقالات ، حتى يؤمن من يؤمن بدعوتنا عن بينة . هذه هى دعوتنا لا تزيد ولا تنقص . أما السيف والقتال به فمعاذ الله أن نمت اليه بصلة ؛ اللهم إلا أن يقال إننا ، بما دافعنا عن أنفسنا حينما اعتدى علينا أحد . ذلك أيضاً قد مضت عليه سنون وأعوام طويلة . أما اليوم فقد أظهرنا براءتنا من ذلك أيضاً . ومن أجل ذلك نسخنا الجهاد « رسميا » ، ذلك الجهاد

المقوت الذى يعمل فيه السيف عمله ، حتى لا يَقلقَ بالكم
ولا يُقضّ عليكم المضجع . فما « الجهاد » اليوم إلا مواصلة
الجهود باللسان والقلم ، وليس لنا إلا أن نلعب بمرهفات
الألسنة وأسنة الأقلام . أما المدافع والدبابات والرشاشات
وغيرها من آلات الحرب واستخدامها فأنتم أحق بها
وأهلُها [1] »

هذه مكايدهم السياسية التى كشفنا لك القناع عن بعضها فى
ما تقدم . لكننا إذا أنعمنا النظر فى المسألة من الوجهة العلمية
ودققنا النظر فى الأسباب التى أشكل لأجلها استجلاء حقيقة

(١) ومن شواهد التاريخ المعاصر على صدق هذا الوصف الذى أورد
الأستاذ المودودي رسالة كانت صحيفة (الفتح) قد تلقتها من مراسلها فى الجزائ
في أوائل سنة ١٣٥٠ ونشرتها فى صدر عددها ٢٥٧ عن زيارة بعض الضبا
الفرنسيين لشيخ السجادة التجانية فى بلدة عين ماضى فرحب بهم وأعلن الشك
لفرنسا على أنها حملت عن مسلمى الجزائر ما كان يثقل كواهلهم من أعباء المل
والسيادة ! فشيخ السجادة التجانية يرى أن الملك والسيادة لا يليق بأمثاله م
عبيد الأفرنج أن ينهضوا بأعبائهما ، وأن المستعمرين أحق بذلك ، و
يشكرهم على قيامهم عن المسلمين بهذا العبء وما يستلزمه من جهاد وكف

« الجهاد فى سبيل الله » واستكناه سرها على المسلمين أنفسهم ، فضلاً عن غير المسلمين ، لاح لنا أن مرجع هـذا الخطأ الى أمرين مهمين لم يسبروا غورهما ولم يدركوا مغزاهما على وجه الحقيقة : —

فالاول أنهم ظنوا الاسلام نحلة (Religion) بالمعنى الذى تطلق عليه كلمة « النحلة » عامة .

والثانى أنهم حسبوا المسلمين أمة (Nation) بالمعنى الذى تستعمل فيه هذه الكلمة فى عامة الأحوال .

فالحقيقة أن خطـأ القوم فى فهم هذين الأمرين المهمين وعدم استجلائهم لوجه الحق فى هاتين المسألتين الأساسيتين هو الذى شوّه وجه الحقيقة الناصعة فى هذا الشأن وعاقهم عن إدراك مغزى « الجهاد » الاسلامى ؛ بل الحق — والحق أحق أن يتبع — أن هذا الخطأ الأساسى فى فهم هاتين المسألتين قد أرخى سدوله على حقيقة الدين الاسلامى بأسره وقلب الأمر ظهراً لبطن ، وجعل موقف المسلمين من العالم ومسائله المتجددة ومشاكله المتشعبة حرجاً ضيقاً لا يرضاه الاسلام وتعاليمه الخالدة

فالنحلة [١] (Religion) ، على حسب الاصطلاح الشائع عندهم ، لا يُراد بها إلا مجموعة من العقائد والعبادات والشعائر . ولا جرم ان النحلة بهذا المعنى لا تعدو أن تكون مسألة شخصية ، فأنت حر فيما تختاره من العقيدة ، ولك الخيار فى أن تعبد بأى طريق شئت من رضيت به رباً لنفسك . وإن أبت نفسُك إلا التحمّسَ لهذه النحلة والانتصار لعقيدتها فلك أن تخترق الأرض وتجوب بلاد الله الشاسعة داعياً الى عقيدتك ، مدافعاً عن كيانها بالحجج والبراهين . مجادلا من يخالفونك فيها بمرهفات الألسنة وأسنة الأقلام . أما السيف وآلات الحرب والقتال : فما لك ولها فى هذا الشان ؟ أتريد أن تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين بعقيدتك ؟ وإن كان الاسلام نحلة (Religion) كنحل العالم ، على حسب الاصطلاح الشائع عندهم كما يزعمون ، فالظاهر أنه لا شأن فيها للسيف وأدوات الحرب كما قالوا . ولو كان موقف الاسلام فى نفس الأمر كما زعموا

---

(١) وردت فى الاصل كلمة « مذهب » التى ترادفها لفظة Religion فى الانكليزية

ووضعوا لما كان فيه مساغ للجهاد ولم يكن من الاسلام فى ورد ولا صدر ، لكن الأمر على خلاف ذلك ، كما سوف تعرفه فى ما يأتى من البيان . وكذلك كلمة الأمة (Nation) فما هى إلا عبارة عن طائفة من الناس متوافقة فيما بينها (Homogeneous group of men) اجتمعت وتألفت وامتازت من بين طوائف أخرى لاشتراكها فى بعض الأمور الجوهرية . فالطائفة التى تكون « أمة » بهذا المعنى لا يبعثها على استخدام السيف إلا أمران : إما أن يعتدى عليها أحد ويريد أن يسلبها حقوقها المعروفة ، وإما أن تحمل هى بنفسها على طائفة أخرى لتنتزع من يدها حقوقها المعروفة . ففى الصورة الاولى منهما ، لها سعة فى الأمر ، وهى لا تخلو من وازع خلقى يلجئها الى استخدام السيف والبطش بمن اعتدى عليها ، وإن كان بعض المتشدقين بالأمن والسلام لا يبيح ذلك أيضاً . أما الصورة الثانية ـــ أى الاعتداء على حقوق غيرها والاغارة على الشعوب والامم من غير ما سبب ـــ فلا يبيحها غير بعض الجبابرة المسيطرين (Dictators) ، حتى ان ساسة الدول الكبرى كبريطانيا وأمريكا أيضاً لا يقدرون أن يجترئوا على القول بجوازها .

حقيقة الجهاد

فان كان الاسلام نحلة كالنحل الأخرى والمسلمون أمة كغيرهم من أمم العالم، فلا جرم أن «الجهاد» الاسلامى يفقد بذلك جميع المزايا والخصائص التى جعلته رأس العبادات ودرة تاجها. لكن الحقيقة أن الاسلام ليس بنحلة كالنحل الرائجة، وان المسلمين ليسوا بامة كأمم العالم، بل الأمر أن الاسلام فكرة انقلابية (Revolutionary) ومنهاج انقلابى يريد أن يهدم نظام العالم الاجتماعى بأسره ويأتى على بنيانه من القواعد ويؤسس بنيانه من جديد حسب فكرته ومنهاجه العملى. ومن هناك تعرف أن لفظ «المسلم» وصف للحزب الانقلابى العالمى (International Revolutionary Party) الذى يكونه الاسلام وينظم صفوفه ليكون أداة فى إحداث ذلك البرنامج الانقلابى الذى يرمى اليه الاسلام ويطمح إليه ببصره، والجهاد عبارة عن الكفاح الانقلابى (Revolutionary Struggle)، وعن تلك الحركة الدائبة المستمرة التى يقام بها للوصول الى هذه الغاية وإدراك هذا المبتغى.

والاسلام يتجنب الكلمات الشائعة فى دعوته وبيان منهاجه العملى ؛ شأن غيره من الدعوات الفكرية والمناهج الانقلابية ، بل يؤثر لذلك لغة من المصطلحات (Terminology) خاصة ، لئلا يقع الالتباس بين دعوته وما إليها من الأفكار والتصورات ، وبين الأفكار والتصورات الشائعة الرائجة . « فالجهاد » أيضاً من الكلمات التى اصطلح عليها الاسلام لأداء مهمته وتبيين تفاصيل دعوته . فانت ترى أن الاسلام قد تجنب لفظة « الحرب » وغيرها من الكلمات التى تؤدى معنى القتال (War) فى اللغة العربية واستبدل بها كلمة « الجهاد » التى تؤدى معنى « بذل الجهد والسعى » ويرادفها كلمة (Struggle) فى اللغة الانكليزيه ، غير أن لفظة « الجهاد » أبلغ منها تأثيراً وأكثر إحاطة بالمعنى المقصود . فما الذى أفضى بالاسلام الى أن يختار هذه الكلمة الجديدة ، صارفاً بوجهه عن الكلمات القديمة الرائجة ؟ والذى أراه وأجزم به أنه ليس لذلك إلا سبب واحد وهو أن لفظة « الحرب » (War) كانت ولا تزال تطلق على القتال الذى يُشَبُّ لهيبهُ وتستعر ناره بين الرجال والأحزاب

والشعوب لمآرب شخصية وأغراض ذاتية . والغايات التى ترمى إليها أمثال هذه الحروب لا تعدو أن تكون مجرد أغراض شخصية أو اجتماعية ، لا تكون فيها رائحة لفكرة أو انتصار لمبدإ . وبما أن القتال المشروع فى الاسلام ليس من قبيل هذه الحروب ، فلم يكن له بدّ من ترك هذه اللفظة (الحرب) البتة . لأن الاسلام لا ينظر الى مصلحة أمة دون أمة ، ولا يقصد الى النهوض بشعب دون شعب ، وكذلك لا يهمه فى قليل ولا كثير أن تملك الأرض وتستولى عليها هذه المملكة أو تلك ، وإنما تهمه سعادة البشر وفلاحهم . وله فكرة خاصة ومنهاج عملى مختار لسعادة المجتمع البشرى والصعود به الى معارج الفلاح . فكل حكومة مؤسسة على فكرة غير هذه الفكرة ومنهاج غير هذا المنهاج ، يقاومها الاسلام ، ويريد أن يقضى عليها قضاء مبرماً ، ولا يعنيه فى شىء بهذا الصدد أمر البلاد التى قامت فيها تلك الحكومة غير المرضية أو الأمة التى ينتمى اليها القائمون بأمرها . فان غايته استعلاءُ فكرته . وتعميم منهاجه ، وإقامة الحكومات وتوطيد دعائمها على أساس هذه الفكرة وهذا

المنهاج ، بصرف النظر عمن يحمل لواء الحق والعدل بيده ومن تنتكس بذلك رايةُ عدوانه وفساده . والاسلام لا يتطلب الأرض ولا يقتنع بقطعة أو جزء منها ، وإنما يتطلب ويستدعى المعمورة الأرضية كلها ، ولا يتطلبها لتستولى عليها وتستبد بمنابع ثروتها أمة بعينها ، بعد ما تنتزع من أمة أو أمم شتى ، بل يتطلبها الاسلام ويستدعيها ليتمتع الجنس البشرى بأجمعه بفكرة السعادة البشرية ومنهاجها العملى اللذين أكرمه الله بهما وفضله بهما على سائر الأديان والشرائع . وتحقيقاً لهذه البغية السامية يريد الاسلام أن يستخدم جميع القوى والوسائل التى يمكن استخدامها لاحداث انقلاب عام شامل يبذل الجهد المستطاع للوصول الى هذه الغاية العظمى . ويُسمى هذا الكفاح المستمر واستنفادُ القوى البالغُ واستخدامُ شتى الوسائل المستطاعة « بالجهاد » . فالجهاد كلمة جامعة تشتمل جميع أنواع السعى وبذل الجهد . واذا عرفت هذا فلا تعجب إذا قلت : إن تغيير وجهات أنظار الناس وتبديل ميولهم ونزعاتهم وإحداث انقلاب عقلى وفكرى بواسطة مرهفات الأقلام نوع من أنواع

« الجهاد » ، كما أن القضاء على نظم الحياة العتيقة الجائرة بحد السيوف وتأسيس نظام جديد على قواعد العدل والنصفة أيضاً من أصناف الجهاد . وكذلك بذل الاموال وتحمل المشاق ومكابدة الشدائد أيضاً فصول وأبواب مهمة من كتاب «الجهاد» العظيم .

فى سبيـــل الله

لكن « الجهاد » الاسلامى ليس بجهاد لا غاية له ، وإنما هو الجهاد فى سبيل الله ؛ وقد لزمه هذا الشرط لا ينفك عنه أبداً . وذلك أيضاً من الكلمات التى اصطلح عليها الاسلام لتبيين فكرته وإيضاح تعاليمه ، كما أشرت اليه آنفاً . وقد انخدع كثير من الناس بمدلوله اللغوى الظاهر وحسبوا أن إخضاع الناس لعقيدة الاسلام وإكراههم على قبولها هو « الجهاد فى سبيل الله » . وذلك أن ضيق صدورهم وعدم اتساع مجال تفكيرهم يعوقهم عن أن يَسْموا بأنفسهم فوق ذلك ويُحلقوا فى سماء أوسع من سمائهم . لكن الحق أن « سبيل الله » فى المصطلح

الاسلامى أرحب وأوسع بكثير مما يتصورون ، وأسمى غاية وأبعد مراماً مما يظنون به ويزعمون . فكل عمل تقوم به للمصالح العامة وسعادة المجتمع ابتغاءاً لمرضاة الله ، لا تريد به مغنماً أو مكسباً فى الحياة العاجلة ، فهو « فى سبيل الله » فى نظر الاسلام . فاذا أنفقت مما رزقك الله فى وجوه الخير والبر ، تريد أن تعود عليك هذه المبرّة بشىء من المنافع الأدبية أو المادية فى هذه الدار الفانية ، فليس ذلك من سبيل الله فى شىء . وأما إذا أسديت إلى مسكين أو معوز معروفاً لا تريد به إلا ابتغاء وجه ربك ، فلا ريب أن ذلك عمل يُعَدُّ « فى سبيل الله » . فهذا المصطلح الاسلامى الخاص — أى المصطلح « فى سبيل الله » — يطاق على الأعمال التى تُؤدّى خالصة لوجه الله من غير أن يشوبها شىء من شوائب الأهواء والشهوات ، يؤديها المرء معتقداً أن عمل الانسان لسعادة إخوانه ينيله مرضاة الله تعالى ، وأن غاية مايتمناه الرجل من هذه الحياة الدنيا وما يقوم به فيها من عمل هو ابتغاء وجه ربه الأعلى ، لاغيرُ .

فما قيد الشارع « الجهاد » بهذا الشرط إلا للدلالة على هذا المعنى . فالذى يتطلبه الاسلام أنه إذا قام رجل أو جماعة من المسلمين ، تبذل جهودها وتستنفد مساعيها للقضاء على النظم البالية الباطلة وتكوين نظام جديد حسب الفكرة الاسلامية فعليها أن تكون مجردة عن كل غرض ، مبرأة من كل هوى أو نزعة شخصية ، لا تقصد من وراء جهودها وما تبذل فى سبيل غايتها من النفوس والنفائس إلا تأسيس نظام عادل يقوم بالقسط والحق بين الناس ، ولا تبتغى بها بدلاً فى هذه الحياة ؛ ولا يكون من هم الانسان خلال هذا الكفاح المستمر والجهاد المتواصل لاعلاء كلمة الله أن ينال جاهاً وشرفاً أو سمعة وحسن أحدوثة ، ولا يخطرن بباله أثناء هذه الجهود البالغة والمساعى الغالية أن يسمو بنفسه وعشيرته ويستبد بزمام الأمر ويتبوأ منصب الطواغيت الفجرة بعدما يعزل غيره من الجبابرة المستكبرين عن مناصبهم . وهاهو القرآن الكريم ينادى بملء صوته :

﴿ الَّذين آمَنُوا يقَاتلُون فى سَبيل الله وَالَّذين كَفَرُوا يُقاتلُونَ فى سَبيل الطَّاغُوت ﴾ النساء : ٧٦

و « الطغيان » ، حسب ما نصت عليه معاجم اللغة ، هو مجاوزة الحد . وكل شيء جاوز المقدار والحد فى العصيان ، فهو طاغ ؛ يقال : طغا السيل : ارتفع حتى جاوز الحد فى الكثرة ، ومنه ورد فى التنزيل : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ ﴾ الحاقة : ٦٩ . فاستعير الطغيان فيه لتجاوز الماء الحدّ . وكذلك إذا تجاوز الانسان الحد وعلا فى الارض ، يفسد فيها ويستعبد الناس بالقهر والإكراه ، يسلبهم حقوقَهم ويحرمهم ثمرات الأرض وخيراتها ، فذلك هو « القتال فى سبيل الطاغوت » الذى ندد به الله وجعله شعار الكفار ودَيْدَنهم . أما القتال فى سبيل الله فهو الذى غايته أن يرفرف لواء القانون الالهى العادل على العالمين وتعلو كلمته فى الدنيا ، بحيث يتبع المقاتل فى سبيل الله ذلك القانونَ العَدْل بنفسه ، وكذلك يحمل غيره من أفراد لبشر على اتباعه وامتثال أوامره . وقد وعد الله الذين يقيمون لدين ويُعلون كلمته فى أرضه ولا يجاوزون حدوده ولا يعتون ن أمره ، شأن المفسدين المتكبرين ، وعدهم الدار الآخرة سعادتها الأبدية ، كما قال عزّ من قائل :

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً ، وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ القصص : ٨٣

وقد ورد فى الحديث أنه قال أعرابى للنبى ﷺ : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، فهو فى سبيل الله [1] » وكذلك أخرج أبو داود والنسائى من حديث أبى أمامة رضى الله عنه بأسناد جيد ، قال جاء رجل فقال : « يارسول الله ، أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ، ماله ؟ قال : « لا شىء له » فأعادها ثلاثاً ، كل ذلك يقول « لا شىء له » . ثم قال رسول الله ﷺ « إن الله

---

(١) متفق عليه (سبل السلام شرح بلوغ المرام ٣ : ١٦٦) . وفى رواية عند مسلم عن أبى موسى قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أى ذلك فى سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، فهو فى سبيل الله . (الصحيح لمسلم : كتاب الامارة)

لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لله وابتغى به وجهه [١]»

فتبين من ذلك أن الله لا يقبل من الجهاد إلاما كان خالصاً لوجهه الكريم وابتغاء لمرضاته ، لا يشوبه شيء من الأغراض النفسية أو الطائفية والقومية ؛ ومن هنا تعرف ما لهذا الشرط «فى سبيل الله» من أهمية عظيمة فى المصطلح الاسلامى ، وبذلك تدرك ما فى تقييد الجهاد الاسلامى بهذا القيد من بُعد المرمى وسمو الغاية ، فأنت ترى أن كل حيوان خلقه الله فى هذه الأرض مجتهد فى سبيل نفسه ، وأصل ليله بنهاره لإدراك غايته والوصول إلى مرماه ؛ لكن المسلمين — أى الحزب الانقلابى الذى يدين بالاسلام ويؤمن بمبادئه الانقلابية — يؤمنون قبل كل شيء بأهم مبادىء الاسلام الانقلابية بل أُسّها وعمادها ، ألا وهو أن ابذلوا مهجكم وأرواحكم وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل اقامة كلمة الحق ، وأعدوا لمنازع الشر والطغيان كل ما استطعتم من عُدّة وعتاد ، تدفعونها

(١) سبل السلام ٣ : ٦٧

بقوتكم حيثما كانت وتجتثون شجرة الفساد من جذورها مهما رسخت وتغلغلت عروقها فى الأرض ، وهكذا تواصلون جهادكم ﴿ حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ . هذا ، ولا ينبغى أن تكون جهودكم ومساعيكم فى سبيل مطامعكم الدنيئة أو أن تكون أمة هى أربى من أمة وجنس أعلى من جنس .

الآن ، وقد بينت فيما تقدم شيئاً من معنى « الجهاد الاسلامى » ومغزاه الحقيقى الذى قلما يتفطن له الناس فى هذا العصر ، أريد أن أصف « الدعوة الانقلابية » التى جاء بها الاسلام وتحدى بها المجتمعَ البشرى على اختلاف العصور والأزمان ، وصفاً موجزاً مناسباً للموقف والمقام ، حتى يكون القراء على بينة من الأمر ، ويعرفوا بسهولة ما فى طبيعة هذه الدعوة من نزوع إلى الجهاد وافتقار إليه ، وحتى يتيسر لهم إدراك غاية « الجهاد » ومرماه .

دعوة الاسلام الانقلابية

لقد تضمنت الآية الكريمة : ﴿ يا أيها النَّاسُ اعبُدوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقكُم . . . ﴾ الآية . البقرة : ٢١

لباب هذه الدعوة ، دعوةِ الاسلام الانقلابية ، وجوهرها . فانه لا يخاطب سكان هذه الكرة باسم العُمال أو الفلاحين أو الملاكين أو المتمولين من أصحاب المعامل والمصانع ولا يُسمّيهم بأسماء أحزابهم وطبقاتهم ، وإنما يخاطب الاسلامُ بنى آدم كافةً ، ولا يناديهم كذلك إلا بصفة كونهم أفراد الجنس البشرى . فهو يأمرهم أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً ولا يتخذوا إلها ولا رباً غيره . وكذلك يدعوهم أن لا يعتوا عن أمر ربهم ، ولا يستنكفوا عن عبادته ، ولا يتكبروا فى أرض الله بغير الحق ، فان الحكم والأمر لله وحده ، وبيده مقاليد السماوات والارض ، فلا يجوز لاحد من خلقه ، كائناً من كان ، أن يعلو فى الارض

ويتكبر ويقهر الناس حتى يخضعوا له ويذعنوا لأمره وينقادوا لجبروته . ودعوته لهم جميعاً أن يخلصوا دينهم لله وحده فيكونون سواء فى هذه العبودية الشاملة ، كما ورد فى التنزيل :

﴿ تَعَالَوا إلىٰ كلمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُم أنْ لاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللهَ ولا نُشْرِكَ بهِ شَيْئاً ولَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أرباباً مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ آل عمران : ٦٤

فهذه دعوة إلى انقلاب عالمى شامل ، لا غموض فيها ولا إبهام ، فانه قد نادى بملء صوته :

﴿ إنِ الحُكْمُ إلاَّ للهِ . أَمَرَ أن لاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ . ذٰلكَ الدِّينُ القَيِّمُ ﴾ يوسف : ٤٠

فليس لأحد من بنى آدم أن ينصب نفسه ملكا على الناس ومسيطراً عليهم ، يأمرهم بما يشاء وينهاهم عما يريد . ولا جرم أن استقلال فرد من أفراد البشر بالأمر والنهى من غير أن يكون له سلطان من الملك الأعلى هو تكبر فى أرض الله بغير الحق وعتو عن أمره وطموح الى مقام الألوهية . والذين

يرضون أمثال هؤلاء الطواغيت ملوكا لهم وأمراء ، إنما يشركونهم بالله ، وذلك مبعث الفساد فى الأرض ، ومنه تتفجر ينابيع الشر والطغيان . وإذا أنعمت النظر فى الأسباب التى تعدل بالانسان عن الفطرة السليمة التى فطره الله عليها وتصرفه عن منهاج الحياة المستقيم الذى أرشده إليه ، وجدت أن مرجعها جميعاً الى أنهم يَنسَوْن الله فيُنْسَوْن حقيقة أنفسهم وذلك يستلزم أن يقوم رجال أو بيوتات أو طبقات من المجتمع — سواء منهم من أسرَّ القول ومن جهر به — يتبوءون مناصب الحكم والقهر ، فتفضى بهم هذه السيطرة أن يخرجوا عن حدود الفطرة البشرية وتُسول لهم أنفسهم أن يستعبدوا الناس ويخضعوهم لجبروتهم قهراً ، سواء أأعلنوا ذلك أم أخفوه فى ضمائرهم . هذا فى جانب ، وبجانب آخر يكون من نتائج هذا الجهل والسفه وعدم معرفة الانسان لجلال الألوهية وجبروتها ، وجهله بقيمة المروءة والشهامة التى أودعتها الفطرة البشرية ، يكون من نتائجها أن يرضى جزء غير يسير من الناس جبروتَ الطغاة المستكبرين وسيطرتهم ويذعن لهم بحقهم فى

الأمر والنهى وينقادوا لأوامرهم خاضعين . وذلك هو أساس الفساد فى الأرض ومبعث البغى والعدوان والاستغلال الممقوت ولذلك أتى الاسلام على بنيانه من القواعد ، واجتث شجرته من جذورها ، ولم يدع فى القوس منزعاً للريبة والشك . وهاهو ذا يندد به فى آى من الذكر الحكيم محكمة ، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها : —

﴿ وَلا تُطِيعُوا أمرَ المُسرِفِينَ الَّذين يُفسِدُونَ فِى الأَرْضِ وَلا يُصلِحُون ﴾ الشعراء : ١٥١ ، ١٥٢

﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أغفَلْنا قَلبَهُ عَنْ ذِكرِنَا وَاتَّبَعَ هَواهُ وكَانَ أمرُهُ فُرُطاً ﴾ الكهف : ٢٨

﴿ ألَا لَعنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالمِينَ الَّذينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً ﴾ هود : ١٨ ، ١٩

وهو يسائلهم : ﴿ أَأَربابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيرٌ أَمِ اللهُ الواحِدُ

القَهَّارُ؟ ﴾ يوسف : ٤٠

فان أبيتم عبودية الله الواحد الفرد الصمد ، دانت رقابكم للطواغيت الذين علوا فى الأرض وتمادى بهم الطغيان فاتخذوا من أنفسهم آلهة وأرباباً من دون الله ، ولن تتخلصوا من نير عبوديتهم أبداً ، فانهم لا محالة يمتلكون ناصية أمركم يعيثون فى الأرض فساداً ، فان ذلك من طبيعتهم التى طبعوا عليها ، كما نطق بذلك لسان الوحى :

﴿ إنَّ المُلُوكَ إذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أفسَدُوها وَجَعَلُوا أعِزَّةَ أهلِها أذِلَّةً . وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ النمل : ٤٣

﴿ وَإذا تَوَلَّى سَعَى فِى الأرضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَيُهلِكَ الحَرثَ وَالنَّسلَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ ﴾ البقرة : ٢٥

ولا يغيبن عن بالكم فى هذا المقام أن دعوة الاسلام الى التوحيد وعبادة الله الواحد لم تكن قضية كلامية أو عقيدة لاهوتية فحسب ، شأن غيره من النحل والملل ؛ بل الأمر أنها

كانت دعوة الى انقلاب اجتماعى ، أرادت فى أول ما أرادت أن تقطع دابر الذين تسنموا ذروة الألوهية واستعبدوا الناس بحيلهم ومكايدهم المختلفة ، فنهم من تبوأ مناصب السدنة والكهان ، ومنهم من استأثر بالملك والإمرة وتحكم فى رقاب الناس ، ومنهم من استبدّ بمنابع الثروة وخيرات الأرض وجعل الناس عالة عليهم يتكففون ولا يجدون ما يتبلغون به فأرادت دعوة الاسلام أن تقطع دابرهم جميعاً وتستأصل شافتهم استئصالا . وهؤلاء تارة تسنموا قمة الألوهية جهراً وعلانية وأرادوا أن يقهروا من حولهم من الناس على أن يذعنوا لأمرهم وينقادوا لجبروتهم ، مستندين الى حقوقهم التى ورثوها عن آبائهم أو استأثرت بها الطبقة التى ينتمون اليها ، فقالوا : ﴿ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلٰه غَيرى ﴾ و ﴿ أنا رَبُّكُمُ الأَعلىٰ ﴾ و ﴿ أَنا أُحيي وأُميتُ ﴾ و ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنّا قُوَّةً ﴾ الى غيرها من كلمات الاستكبار ، ودعاوى الألوهية ، التى تفوهوا بها وتجاسروا عليها بغياً وعدوانا ، وطوراً استعملوا جهل الدهماء وسفههم ، فاتخذوا من الأصنام والتماثيل والهياكل آلهة ،

يدعون النـاس ويريدونهم على أداء مظاهر العبودية أمام هذه التماثيـل والهيـاكل ، متوارين بأنفسهم من ورائها ، يلعبون بعقول النـاس ، ويستعبدونهم لاغـراضهم وشهواتهم ، وهم لا يشعرون . فيتبين من ذلك أن دعوة الاسلام الى التوحيـد وإخلاص العبادة لله الواحد الأحد ، وتنديده بالكفر والشرك بالله ، وتحتيمه اجتناب الأوثـان والطواغيـت ، كل ذلك كان يتنافى ويتعارض مع الحكومة والعـاملين عليها المتصرفين فى أمورها والذين يجدون فيها سندا لهم وعوناً على قضاء حاجاتهم وأغراضهم . ومن ثَـمَّ ترى أنه كلما قام نبي من الأنبياء يجاهر الناس بالدعوة وخاطبهم قائلاً : ﴿ يا قوم اعبدوا اللهَ ما لـكم من إله غيرُه ﴾ قامت فى وجهه الحكومات المتمكنة فى عصره وثار عليه جميع من كانوا يستغلون خيرات البلاد ويستثمرونها ظلماً وعدوانا ، خرجت تقاومه وتضع فى سبيـل الدعوة العقبات ، وذلك أن هذه الدعوة لم تكن مجرد بيـانٍ لعقيدة كلامية أو شرحٍ لمسألة من مسائل الالهيات ، وإنما كانت نداء لانقلاب اجتماعى عالمى ، ما كانت بوادره لتخفى على المستأثرين

بمناصب العز والجاه ، المستبدين بمنابع الثراء من الذين يشمّون رائحة الاضطراب السياسى قبل حدوثه بأعوام .

خصائص دعوة الاسلام الانقلابية

ومما لا مجال فيه للريب أن رسل الله الكرام — صلوات الله عليهم جميعا — كانوا كلهم دعاةَ الانقلاب ، ورسل التجديد والتغيير ، تجديد النظم السياسية والاجتماعية والخلقية والاقتصادية وتغييرها كلياً شاملاً ، وأن النبى العربى الأمى ﷺ سيدُ هؤلاء الدعاة وحامل لوائهم . لكن الذى يفرق بين هؤلاء الرسل وغيرهم من دعاة الانقلاب فى العالم ويميزهم من بين أولئك تميزاً بيناً واضحاً ، هو أن دعاة الانقلاب أو « الانقلابيين » حسب العرف الشائع ، مهما أوتوا من سداد الرأى وتقويب الفكر ، ومهما بلغوا فى صدق الطوية وحسن القصد ، لا يمكنهم أصلاً أن يصيبوا هدف العدل الأسمى ويزنوا الأمور بالقسطاس المستقيم . وذلك أنهم إما أن يكونوا قد نشأوا بأنفسهم فى الطبقات المضطهدة فى المجتمع

أو قاموا منتصرين للطبقات البائسة المضطهدة من حولهم ، مطالبين بحقوقهم المغصوبة المهضومة ، فينظرون بحكم أحوالهم إلى جميع المسائل والمشاكل بنظرة المنكوبين والطبقات البائسة المظلومة ، فتكون النتيجة أن نظرتهم الى المسائل وطريق تفكيرهم فى معضلات الحياة لا تبقى عادلة مبنية على موازين العدل والقسط العالمية الشاملة للناس جميعاً ، فبينما تراهم يعطفون على طبقة ويبدون لها عواطف الولاء والمناصرة ، إذا بهم يرمقون طبقة أخرى بعين الغضب والازدراء ولا يخفون مافى قلوبهم من العداء والكره الشديد لها . فكلما تفكروا فى علاج حاسم لأدواء الجور والعسف والطغيان ، غلوا وجاءوا بدواء هو أشد من ذلك الداء جوراً وأعرق منه فى العسف وأكثر طغياناً . وجملة القول أنهم لا يتسنى لهم بطبيعة أحوالهم وبيئاتهم — ولا يمكن أن يَتسَنى لهم — أن يطهروا قلوبهم من أدران العداء والانتقام ويزكوا نفوسهم من شوائب الحسد والبغضاء ، فيضعوا نظاماً اجتماعياً مستنداً إلى أسس العدل وموازين الحق والقسط ، يضمن سعادة البشر أجمعين . أما

الأنبياء ورسل الله الكرام — صلوات الله عليهم وسلامه — فلا يمكن أن يتطرق الى دعوتهم وحركتهم الانقلابية شيء من عواطفهم الشخصية ، أو تشوب أعمالهم ومساعيهم شائبة من نوازع قلوبهم ، وان اضطهدوا فى رسالتهم وأوذوا فى سبيل الحق ، وأصابهم وأصاب أصحابهم وأتباعهم فى سبيلها صنوف من الشدائد والأهوال ؛ وكيف ؟ وهم قاموا برسالتهم بوحى من الله العزيز وأمر من عنده ، والله تعالى شأنه وتباركت أسماؤه منزه عن نقائص العواطف البشرية ، ينظر الى خلقه بنظرة واحدة ، ما لطبقة من البشر من دالة عليه ، ولا هو ، جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ، يشكو طبقة أو يضمر لها سخطاً دون سائر الطبقات . فكانت رسل الله الكرام بهداية من ربهم ينظرون الى جميع المسائل ومشاكل الحياة الدنيا بعين الإنسانية الخالصة النقية . وكان جل همهم ومعظم تفكيرهم ماذا عسى أن يكون فيه سعادة المجتمع البشرى بأسره ، وما عسى أن يكون فيه سعادة الطبقات الجائرة نفسها أيضاً ، وكانوا يسعون دائماً وراء إيجاد نظام اجتماعى عادل ، يتمتع فى دائرته كل فرد بحقوقه

المشروعة ، متقيداً بالقيود اللازمة التى لا مندوحة عنها ، حتى ينتظم ما بين الفرد والجماعة من العلاقات على أسس الحق والعدل ، يعطى كلٌّ واحد منهما نصيبه من الحقوق . وكذلك يلتزم كل واحد منهما ما عليه من الواجبات للآخر . ومن ثم ترى أن دعوة الرسل الانقلابية لم تتحول قط الى نزاع وتنافس بين الطبقات . فانهم ما جددوا بناء الحياة الاجتماعية بأن يرفعوا طبقة ويضعوا أخرى مثلها ، أو يُسلطوا بعض الطبقات على بعض فى المجتمع ؛ كلا بل إنهم اختاروا طريقاً وسطاً ، وجدّدوا بنيان المجتمع على قواعد العدل والنصفة ، بحيث يتسنى فى دائرتها لجميع أفراد الجنس البشرى أن يتمتعوا بحقوقهم الفطرية ، ويرتقوا بأنفسهم الى معارج السعادتين المادية والروحية .

الحاجة الى الجهاد وغايته

ولست فى هذا المقام بصدد بيان تفاصيل هذا النظام لاجتماعى الذى جاء به الاسلام ، والاحاطة بخصائصه ومزاياه

وكذلك ليس من الميسور استيفاء الكلام عنه فى ضمن هذه المقالة،فان له موضعه : وسنتوخى البحث فيه والاحاطة بجميع نواحيه حين سنوح الفرصة إن شاء الله تعالى . والذى أردت تبيينه والكشف عن حقيقته بمناسبة الموضوع الذى نحن بصدده الآن ، هو أن الأسلام ليس مجرد مجموعة من العقيدة الكلامية وجملة من المناسك والشعائر ، كما يُفهم من معنى الدين فى هذه الايام ؛ بل الحق أنه نظام كلى شامل يريد أن يقضى على سائر النظم الباطلة الجائرة الجارية فى العالم ويقطع دابرها ويستبدل بها نظاماً صالحاً ومنهاجاً معتدلا يرى أنه خير للانسانية من النظم الأخرى ، وأن فيه نجاةً للجنس البشرى من أدواء الشر والطغيان ، وسعادةً له وفلاحاً فى العاجلة والآجلة معاً .

ودعوتُه فى هذه السبيل : سبيل الإصلاح والتجديد والهدم والبناء ، عامة للجنس البشرى كافةً ، لا تختص بأمة دون أمة أو طائفة دون طائفة . فهو يدعو بنى آدم جميعا إلى كلمته ، حتى أنه يُهيب بالطبقات الجائرة نفسها ممن تعدّوا حدود الله

فى أرضه واستأثروا بخيرات الأرض دون سائر الناس . يهيب بالملوك والأمراء أنفسهم وينــاديهم قائلا : « لا تطغوا فى الأرض ، وادخلوا فى كنف حدود الله التى حــدّدها لكم ، وكفّوا أيديكم عما نهى الله عنه وحذّركم إياه . فان أسلمتم لأمر الله ، ودِنتم لنظام الحق والعدل الذى أقامه للناس خيراً وبركة ، فلكم الأمن والدعة والسلامة . فان الحق لا يعادى أحــداً ، وإنما يُعادى الحقُّ الجورَ والفساد والفحشاء ، وأن يتعدى الرجل حدودَه الفطرية ويبتغى ما وراء ذلك مما لاحظّ له فيه حسب سنن الكون و ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها ﴾ .

فكل من آمن بهذه الدعوة وتقبلها بقبول حسن ، يصير عضواً فى « الجماعة الاسلامية » أو « الحزب الاسلامى » لافرق فى ذلك بين الأحمر منهم والأسود أو الغنى منهم والفقير ، كلهم سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لأمة على أمة أو لطبقة على أخرى . وبذلك يتكون ذلك الحزب العــالمى أو الأممىُّ الذى سُمى ﴿ حزب الله ﴾ بلسان الوحى .

وما إن يتكون هذا الحزب حتى يبدأ بالجهاد فى سبيل

الغاية التى أنشىء لأجلها . فمن طبيعته ومما يستدعيه وجوده أن لا يألو جهداً فى القضاء على نظم الحكم التى أسس بنيانها على غير قواعد الاسلام واستئصال شأفتها ، وأن يستنفد مجهوده فى أن يستبدل بها نظاماً للعمران والاجتماع معتدلاً ؛ مؤسساً على قواعد ذلك القانون الوسط العدل الذى يسميه القرآن الكريم « كلمة الله » . فان لم يبذل هذا الحزب الجهد المستطاع ولم يسع سعيه وراء تغيير نظم الحكم وإقامة نظام الحق ؛ نظام الحكم المؤسس على قواعد الاسلام . ولم يجاهد حق جهاده فى هذه السبيل ، فاتته غايته . وقصر عن تحقيق البغية التى أنشىء لأجلها ، فانه ما أنشىء إلا لادراك هذه الغاية وتحقيق هذه البغية ، بغية إقامة نظام الحق والعدل ، ولا غاية له ولا عمل إلا الجهاد فى هذه السبيل . وهذه الغاية الوحيدة التى بينها الله تعالى فى كتابه العزيز بقوله :

« كُنتُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعرُوفِ وَتَنهَونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤمِنُونَ بِاللهِ » آل عمران : ١١٠

ولا يظنن أحد أن هذا الحزب — « حزب الله » بلسان

الوحى — مجرد جماعة من الوعاظ المبشرين يعظون الناس فى المساجد ويدعونهم الى مذاهبهم ومسالكهم بالخطب والمقالات . لا ، ليس الامر كذلك وإنما هو حزب أنشأه الله ليحمل لواء الحق والعدل بيده ويكون شهيداً على الناس . ومن مهمته التى ألقيت على كاهله من أول يوم ، أن يقضى على منابع الشر والعدوان ، ويقطع دابر الجور والفساد فى الأرض والاستغلال الممقوت ، وأن يكبح جماح الآلهة الكاذبة الذين تكبروا فى أرض الله بغير الحق وجعلوا أنفسهم أرباباً من دون الله ، ويستأصل شأفة ألوهيتهم ، ويقيم نظاماً للحكم والعمران صالحاً يتفيأ ظلاله القاصى والدانى والغنى والفقير . والى هذا المعنى أشار الله تعالى فى غير واحدة من آى الذكر الحكيم :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ الانفال : ٣٨

﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِى الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ الانفال : ٧٢

﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ التوبة : ٣٣

فتبين من كل ذلك أن هـذا الحزب لا بد له من امتلاك ناصية الأمر ، ولا مندوحة له عن القبض على زمام الحكم ، لأن نظام العمران الفاسد لا يقوم إلا على أساس حكومة مؤسسة على قواعد العدوان والفساد فى الأرض ؛ وكذلك ليس من الممكن أن يقوم نظام للحكم صالح ويؤتى أكله إلا بعد ما ينتزع زمام الأمر من أيدى الطغاة المفسدين ، ويأخذه بأيديهم رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً .

وأضف الى ذلك أن هذا الحزب ، بصرف النظر عما يرمى اليه من إصلاح العالم وبث الخير والفضيلة فى أنحاء الأرض كافة لا يقدر أن يبقى ثابتا على خطته متمسكا بمنهاجه ، عاملا وفق مقتضياته ، ما دام نظام الحكم قائماً على أساس آخر ، سائراً على منهاج غير منهاجه . وذلك أن حزباً مؤمناً بمبدإ ونظام للحياة والحكم خاص ، لا يمكنه أن يعيش متمسكا بمبدئه عاملا حسب مقتضاه فى ظل نظام للحكم مؤسس على مبادىء وغايات غير المبادىء والغايات التى يؤمن بها ويريد السير على منهاجها . فان

رجلا يؤمن بمبادئ الشيوعية إن أراد أن يعيش في بريطانية أو ألمانية (١) متمسكا بمبدئه سائراً في حياته على البرنامج الذي تقرره الشيوعية ، فلن يتمكن من ذلك أبداً ، لأن النظم التي تقررها الرأسمالية والنازية تكون مهيمنة عليه قاهرة بما أوتيت من سلطان ، فلا يمكنه أن يتخلص من براثنها أصلاً . وكذلك إن أراد مسلم أن يقضي حياته مستظلاً بنظام للحكم مناقض لمبادىء الاسلام الخالدة ويُودّ أن يبقى مستمسكاً بمبادىء الاسلام ، سائراً وفق مقتضاه في أعماله اليومية ، فلن يتسنى له ذلك ولا يمكنه أن ينجح في بغيته هذه أبداً ، لأن القوانين التي يراها باطلة ، والضرائب التي يعتقدها غرماً ونهباً لأموال الناس والقضايا التي يحسبها جائرةً عن الحق وافتئاتاً على العدل ، والنظم التي يعرف أنها مبعث الفساد في الأرض ، ومناهج التعليم التي يجزم بوخامة عاقبتها وسوء نتائجها ويرى فيها هلاكاً للامة — يجد كل هذه مهيمنة عليه ومسيطرة على بيئته وأهله

(١) كتبت هذه المقالة عام ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م)

وأولاده ، بحيث لا يمكنه أن يتخلص من قيودها وينجو بنفسه وأهله من أثرها ونفوذها . فالذى يؤمن بعقيدة ونظام ، فرداً كان أو جماعة ، مضطر بطبيعة عقيدته وإيمانه بها أن يسعى سعيه فى القضاء على نظم الحكم القائمة على فكرة غير فكرته ؛ ويبذل الجهد المستطاع فى إقامة نظام للحكم مستنداً إلى الفكرة التى يؤمن بها ويعتقد أن فيها سعادةً للبشر ، لأنه لا يتسنى له العمل بموجب عقيدته والسير على منهاجه إلا بهذا الطريق . وإذا رأيت رجلاً لا يسعى وراء غايته أو يغفل عن هذا الواجب ، فاعلم أنه كاذب فى دعواه ولما يدخل الايمان فى قلبه ، وبهذا المعنى ورد فى التنزيل :

﴿ عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ . لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ التوبة : ٤٥

وأى شهادة أصدق وأى حجة أنصع وأبلغ من شهادة القرآن وحجته؟ فى هذه الآيات من سورة براءة قد نص القرآن الكريم على أن الذى لا يلبّى نداء الجهاد ولا يجاهد بماله ونفسه فى سبيل إعلاء كلمة الله وإقامة الدين الذى ارتضاه لنفسه وتوطيد نظام الحكم المبنى على قواعده، فهو فى عداد الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم، فهم فى ريبهم يتردَّدُون. وهذا هو المقياس الذى يقاس به صدق المرء فى عقيدته وإخلاصه لها. فان الذى يذعن لنظم الحكم القائمة على فكرة غير الفكرة التى يؤمن بها، كأنه يعلن للناس أنه كاذب فى دعواه غير مخلص فى عقيدته. ومن النتائج اللازمة الفطرية لهذا الخضوع والاذعان أن يتزحزح مثل هذا الرجل عن عقيدته ويتدرج الى الانحلال عن ذلك القليل من الايمان الذى قد يكون باقياً فى قلبه بعد الاستسلام للنظم الباطلة والخضوع لها. وذلك أنك بادىء ذى بدء تستسلم للنظم الباطلة، وقلبُك غير مطمئن لها، ثم يأخذ قلبك يستأنس بها يوماً بعد يوم حتى تطمئن لها وتسكن اليها وتحس من نفسك ميلاً

وتشوقاً اليهـــا ، وهكذا تتدرج فى الركون اليها والاستئناس بهـا إلى أن تكون عوناً لهم ومؤازراً فى توطيـد دعائم النظم الباطلة وتسيير دفة شؤونها ، حتى يأتى عليك يوم وأنت لاتضن ببذل النفوس والنفائس فى سبيل إقامة صرح الآراء الباطـلة وإحكام بنائها ، ولا تتحرج فى الجهـــاد بنفسك وذات يدك تقويضاً لدعائم الاسلام وصداً للناس عن سبل الحق والعدل . وإذا بلغ الأمر برجل إلى هذا الحد فلا فرق بينه وبين الكافر إلا أن هذا مجاهر بعدوانه وذلك منافق مماذق ينسمى بأسمـــاء المسلمين زوراً ورئاء الناس ويقول ما لا يؤمن به كذباً وافتراء على الله . وإلى ذلك أشار النبي ﷺ فى ما روى عنه :

« والذى نفسى بيده لتـــأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد المسيء ولتـأطرنّه على الحق أطراً ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم »[1]

---

(١) رواه أبو داود فى الباب ١٧ من كتاب الملاحم ، والترمـــذى في الباب ٥ـ٦ من تفسير سورة المائدة من كتاب التفسير فى سننه ، وابن ماجه فى الباب ٢٠ من كتاب الفتن . وأورد الامام احمـد طرفا منه في المسند ١ : ٣٩١ الطبعة الاولى — و ٥ : ٢٦٨ طبعة الشيخ أحمـد شاكر . وهو فى تفسير ابن كثير الآية ٧٨ — ٨١

الانقلاب العالمى الشامل

لعلك تبينت مما أسلفنا آنفاً أن غاية « الجهاد فى الاسلام » هو هدم بنيان النُظُم المناقضة لمبادئه وإقامة حكومة مؤسَّسة على قواعد الاسلام فى مكانها واستبدالها بها . وهذه المهمة ، مهمة إحداث انقلاب اسلامى عام ، غير منحصرة فى قطر دون قطر ، بل مما يريده الاسلام ويضعه نصب عينيه أن يحدث هذا الانقلاب الشامل فى جميع أنحاء المعمورة . هذه هى غايته العليا ومقصده الأسمى الذى يطمح اليه ببصره ؛ إلا أنه لا مندوحة للمسلمين أو « أعضاء الحزب الاسلامى » عن الشروع فى مهمتهم باحداث الانقلاب المنشود والسعى وراء تغيير نظم الحكم فى بلادهم التى يسكنونها . أما غايتهم العليا وهدفهم الأسمى فهو الانقلاب العالمى الشامل المحيط بجميع أنحاء الأرض . وذلك أن فكرة انقلابية لا تؤمن بالقومية ، بل تدعو الناس جميعاً إلى سعادة البشر وفلاح الناس أجمعين ، لا يمكنها أصلاً أن تُضيّق دائرة عملها فى نطاق محدود من أمة أو قطر ؛ بل

الحق أنها مضطرة بسجيتها وجبلتها أن تجعل الانقلاب العالمى غايتها التى تضعها نصب عينها ولا تغفل عنها طرفة عين . فان الحق يأبى الحدود الجغرافية ولا يرضى أن ينحصر فى حدود ضيقة اخترعها علماء الجغرافية واصطلحوا عليها . فالحق يتحدى العقول البشرية النزيهة ويقول لها مطالباً بحقه : « ما بالكم تقولون ان القضية الفلانية (حق) فى هذا الجانب من ذاك الجبل أو النهر مثلا ، ثم تعود تلك القضية نفسها (باطلا) بزعمكم إذا جاوزنا ذاك الجبل أو النهر باذرع » . الحق حق فى كل حال وفى كل مكان ، وأى تأثير للجبال والأنهار فى تغيير حقيقته المعنوية . الحق ظله وارف ، وخيره عام شامل ، لا يختصُّ ببيئة دون بيئة ولا قطر دون قطر . فأينما وُجد الانسان مقهوراً ، فالحق من واجبه أن يدركه ويأخذ بحقه وينتصر له . ومهما أصيبت الانسانية فى أبنائها المستضعفين ، فعلى العدل ومبادئه والحاملين للوائه أن يُلبّوا نداءها ويأخذوا بناصرهم ، حتى ينتصروا لهم من أعدائهم الجائرين ، ويستردوا لهم حقوقهم المغصوبة التى استبد بها الطغاة بغياً وعدواناً . وبهذا المعنى نطق لسان الوحى ، حيث ورد فى التنزيل :

﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فى سَبِيلِ الله وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنا مِنْ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ النساء : ٧٥

وزد على ذلك أن الأواصر البشرية والعلاقات الانسانية ، على ما أثرت فيها الفوارق القومية والوطنية ، وأحدثت فيها من نزعات الشتات والاختلاف ، قد تشتمل على تلاؤم شامل وتجانس عام بين أجزائها ، ربما يتعذر معه أن تسير مملكة فى قطر بعينه حسب مبادئها وخطتها المرسومة المستبينة ، ما دامت الأقطار المجاورة لها لا توافقها على مبادئها وخطتها ، ولاترضى بالسير وفق منهاجها وبرنامجها . ومن أجل ذلك وجب على الحزب المسلم ، حفظاً لكيانه وابتغاء للاصلاح المنشود ، أن لا يقتنع باقامة نظام الحكم الاسلامى فى قطر واحد بعينه ؛ بل من واجبه الذى لا مناص له منه بحال من الأحوال أن لا يدّخر جهداً فى توسيع نطاق هذا النظام وبسط نفوذه فى مختلف أرجاء الأرض . ذلك بأن يسعى الحزب الاسلامى فى جانب وراء نشر الفكرة الاسلامية ، وتعميم نظرياتها الكاملة ،

ونشرها فى أقصى الأرض وأدناها ، ويدعو سكان المعمورة على اختلاف بلادهم وأجناسهم وطبقاتهم أن يتلقوا هذه بالقبول ، ويدينوا بهذا المنهاج الذى يضمن لهم السعادتين ؛ سعادتى الدنيا والآخرة ؛ وبجانب آخر يشمر عن ساق الجد ، ويقاوم النظم الجائرة المناقضة لقواعد الحق والعدل بالقوة ؛ إذا استطاع ذلك وأعد له عدته ؛ ويقيم مكانها نظام العدل والنصفة المؤسس على قواعد الاسلام ومبادئه الخالدة التى لا تبلى ولن تبلى جدتها على مرور الأيام والليالى .

هذه هى الخطة التى سلكها ؛ وهذا هو المنهاج الذى انتهجه النبى ﷺ ومن جاء بعده وسار بسيرته من الخلفاء الراشدين . فانهم بدأوا ببلاد العرب التى أشرقت شمس الاسلام من آفاقها وأخضعوها أولا لحكم الاسلام وأدخلوها فى كنف المملكة الاسلامية الجديدة ؛ ثم دعا النبى ﷺ الملوك والأمراء والرؤساء فى مختلف بقاع الأرض الى دين الحق والإذعان لأمر الله . فالذين آمنوا بهذه الدعوة انضموا إلى هذه المملكة الاسلامية وأصبحوا من أهلها . والذين لم يلبوا دعوتها ولم

يتقبلوها بقبول حسن ؛ شرع فى قتالهم وجهادهم . ولما استخلف أبو بكر رضى الله عنه بعد وفاته ﷺ والتحاقه بالرفيق الأعلى : حمل على المملكتين المجاورتين للمملكة الاسلامية ، مملكتى الروم والفرس اللتين بلغ من عُتُوّهما وتماديهما فى الغَىِّ والاستكبار فى الأرض ما طبقت شهرته الآفاق . وبلغت هذه الحملات — التى بدأ بها الصديق رضى الله عنه — غايتَها فى عصر الفاروق الذى يرجع اليه الفضل العظيم فى توطيد دعائم المملكة الاسلامية الأولى ؛ حتى شمل ظلها الوارف تلك الأقطار جميعاً

هذا ، وقد ظن الجمهور من سكان مصر والشام وبلاد الروم والفرس فى أول الامر أن هذه الحملات المتابعة من العرب وهذه الفتوحات العظيمة التى زادت العرب مجداً وأبهة ، إن هى إلا من قبيل خطة الاستعباد والاستعمار ، قد اختارها العرب وجعلوها شعارهم وديدنهم ، شأن الامم الجائرة التى سبقتهم فى غابر الأزمان . فقد خيل اليهم بادئ ذى بدء أن مثل العرب فى هذه الفتوحات والغزوات كمثل الأمم من قبلهم ، خرجت من أرضها تستعبد الشعوب المستضعفة وتسوقهم بعصا

القهر والعنف وتتصرف فى رقابهم وأموالهم تصرف راعى الابل فى ماشيته . ومن ثم ترى أنهم انضووا فى أول الامر تحت لواء ملوك الروم والفرس وتجندوا فى جيوشهم وبرزوا للقاء المسلمين وقتالهم . ولكنهم لما تبين لهم أمر المسلمين وما خرجوا من ديارهم لأجله وعرفوا منهاج الانقلاب الشامل الذى يريدون تعميمه ونشر كلمته فى أقطار الأرض كافة ، لما ظهر لهم أن هؤلاء العرب لا يقولون بالقومية الجائرة وأنهم ما تدنست أذيالهم بأرجاس الأغراض القومية ؛ وأنهم ما نزحوا من بلادهم إلا لإقامة نظام للحكم مؤسس على قواعد العدل والنصفة ، وأنهم ما استلوا السيوف من أغمادها إلا للقضاء على الطبقات الغاشمة الجائرة التى استبدت بموارد الثراء والرخاء من دونهم . وسامتهم أنواع الخسف والعذاب المهين تحت حماية النظم الكسروية والقيصرية وتبوأت مناصب الألوهية عتواً واستكباراً فى الأرض — لما تبين لهم كل ذلك : وشاهدوا حال الغزاة الفاتحين بأعينهم وتجلت لهم أخلاقهم الزكية الطاهرة ، مالوا بطبعهم الى الحزب الاسلامى ؛ وبدأوا

يتسللون من جيوش الروم والفرس . وإن اضطروا بعد ذلك الى القتال فى صفوفهم أو ألجأتهم الأحوال الى ذلك . فلم يقاتلوا إلا مكرهين وأنفسهم تلومهم على ذلك . ومن هاهنا تعرف السبب الذى ساعد المسلمين على الانتصارات الباهرة والفتوح العظيمة التى أحرزوها فى أول عهدهم بالحروب والغزوات . ومن أجل ذلك ترى أنه لما رأى سكان هذه البلاد المملكة الاسلامية تسير وفق مبادئها على قوانين العدل والنصفة ، وشاهدوا نظام الاسلام الاجتماعى يعمل عمله على مرأى ومسمع منهم ، وعاينوا ما أجدى به ذلك النظام على بلادهم من الرفاهية والطمأنينة ؛ جعلوا يلبون دعوته ويدخلون زرافات ووحدانا فى نظام ذلك الحزب العالمى وينضوون تحت لوائه ؛ الى أن حملوا بأنفسهم تلك الراية ، راية الاصلاح الشامل والانقلاب العالمى ؛ وتقدموا الى مختلف أقطار العالم النائية يدعون أهلها الى الدخول فى كنف ذلك النظام الكافل لسعادة البشر والتمتع بخيراته وثمراته .

لا مساغ لتقسيم الجهاد الى الهجومى والدفاعى

هذا ، واذا تدبرتَ ما بينته آنفا وسبرت غوره ، ظهر لك جلياً أن ما اصطلحوا عليه اليوم من تقسيم القتال الى الهجومي والدفاعى ، لا يصح إطلاقه على الجهاد الاسلامى البتة . وإنما يصدق هذا المصطلح على الحروب القومية والوطنية فقط . لأن هاتين الكلمتين المصطلح عليهما لا ينطق بهما وما جرى استعمالهما إلا بالنسبة الى قطر مخصوص أو أمة بعينها . وأما إذا قام حزب عالمى مستند الى فكرة انقلابية شاملة لا تفرق بين أمة دون أمة ولا تخص قطراً دون قطر ، يدعو جميع الأمم والشعوب على اختلاف أجناسها ولغاتها الى فكرته ومنهاجه ، مفتوحة أبوابهُ لكل من يريد المشاركة فى بث تلك الدعوة ونشر تلك الفكرة ، ولا يسعى إلا وراء القضاء على الحكومات الجائرة المناقضة لمبادئ الحق الخالدة ، وإقامة حكومة صالحة مؤسس بنيانها على قواعد الحق والعدل التى يؤمن بها ويدعو اليها — أما إذا كان الأمر كذلك فلا مجال فى دائرته البتة لما اصطلحوا عليه من نوعى القتال الهجومى

والدفاعى . وكذلك إذا نظرنا فى المسألة بصرف النظر عن هذا المصطلح الشائع ، تبين لنا أنه لا ينطبق هذا التقسيم — الى الهجومى والدفاعى — على الجهاد الاسلامى بحال من الأحوال ، فان الجهاد الاسلامى ، اذا أردت الحقيقة ، هجومى ودفاعى معاً ، هجومى لأن الحزب الاسلامى يضادّ ويعارض الممالك القائمة على المبادئ المناقضة للاسلام ويريد قطع دابرها ولا يتحرج فى استخدام القوى الحربية لذلك . وأما كونه دفاعيا فلأنه مضطر الى تشييد بنيان المملكة وتوطيد دعائمها حتى يتسنى له العمل وفق برنامجه وخطته المرسومة . وغير خاف عليك أن الاسلام حزب ، فليس له من هذه الوجهة دار محدودة بالحدود الجغرافية ، يذود ويدافع عنها ، وإنما يملك مبادئ وأصولا يذب عنها ويستميت فى الدفاع عنها . وكذلك لا يحمل على « دار » الحزب الذى يعارضه ويناقضه ، وإنما يحمل ويصول على المبادئ التى يتمسك بها . ولا يغيبن عن بالك أنه لا يريد بهذه الحملة أن يكره من يخالفه فى الفكرة على ترك عقيدته والايمان بمبادئ الاسلام ، وإنما يريد الحزب الاسلامى أن

ينتزع زمام الأمر ممن يؤمنون بالمبادئ والنظم الباطلة حتى يستتب الأمر لحملة لواء الحق ولا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

حقوق أهل الذمة

ومن ها هنا تنحل عقدة اخرى طالما استعصى على الناس حلها وأشكل عليهم أمرها . وذلك أن ما تقدم آنفاً من خصائص الجهاد الاسلامى وبيان مزاياه ، يتضح به جليا ما يمكن أن يكون من الحقوق فى ضمن نطاق المملكة الاسلامية للذين لا يؤمنون بمبادئها ، بل يدينون بمبادئ أخرى غيرها . فالجهاد الاسلامى لا يتعرض لعقائد الناس ومناسكهم أو مناهج شؤونهم الاجتماعية التى اختاروها وآثروها لأنفسهم ؛ فلهم الخيار فى أن يدينوا بما شاءوا من العقائد ، ولهم الحرية التامة فى أن يختاروا ما استحسنوه من المناهج . لكنه لا يرضى أن تكون لهم الحرية فى تسيير دفة الحكم على منهاج ماأنزل الله به من سلطان ، وكذلك لا يسمح لهم ولا يعترف لهم بحق فى أن تسير عقودهم

ومعاملاتهم فى دائرة المملكة الاسلامية على الطرق الفاسدة التى هى شر على المجتمع ، وفيها خراب للعمران ، وإن كانوا قد تعودوها من قبل . خذ لذلك مثلا الربا ، فانه لا يلبث أن يتولى الحكم ويقبض عــــلى ناصية الأمر حتى يأمر بالقضاء عليه واستئصال شأفته وإيصاد جميع الأبواب التى يخشى منها الوصول اليه . وكذلك لا يبيح القمار ، كائنا ما كان ، ولا يسمح للناس بأن يتعاملوا ويتعاقدوا بالطرق الفاسدة المحظورة فى الشرع ، دع عنك دور البغايا والمومسات ، فان الحكم الاسلامى يأتى على بنيانها من القواعد ويقضى عليها فى أول ما يقضى عليه من الموبقات الاجتماعية . وعلى غرار ذلك يكره غير المسلمات من النساء على التزام آداب الحياء والحشمة ، ويمنعهن من تبرج الجاهلية ، ويجبرهن على التقيد بالقيود اللازمة التى قررها الشرع فى ستر عورات النساء . وكذلك يراقب دور السينما والملاهى ، ويطهرها من أرجاس الخلاعة والفجور . ويوجهها وجهة الخير والرشاد . هذه وأمثالها من الشؤون الاجتماعية وغيرها ، لا تسمح بها المملكة الاسلامية ، حفظا لمصالح المجتمع البشرى

وسعادته ، بل ضنا بكرامتها وحرصا على الاحتفاظ بخصائصها ومقوماتها ، لا تسمح لرعيتها من غير المسلمين أن يجروا على سننهم وتقاليدهم التى يعدها الاسلام خطراً على المجتمع ، ومبعث شر وفساد للانسانية ، وان أمكن أن لا يكون فيها غضاضة فى شرائعهم . ولا يجدون فى أنفسهم حرجا من التعامل بها حسب عاداتهم وتقاليدهم .

والذى يظهر له فى بادئ الرأى أن الاسلام قد جاوز فى هذا الباب حدود التسامح واختار طريق الاضطهاد والتضييق ، فما أجدره أن يوازن بين ما عامل به الاسلام مخالفيه من التسامح وما عاملت به المذاهب الأخرى الانقلابية أو الاصلاحية مخالفيها . فان هذه الموازنة تظهر له الأمر الصراح ، وتبين الفرق العظيم الذى يجده بين الاسلام وغيره من المذاهب والنظريات فى هذا الشان . فانه يرى أن المذاهب الانقلابية والاجتماعية الاخرى غير الاسلام قد بلغت من الاضطهاد والتضييق مبلغا يكاد يضيق به ذرعا من يخالفها فى الفكر والرأى حتى انهم لا يرون لهم ملجأ إلا فى الجلاء من أوطانهم والتشرد

فى آفاق الأرض . أما الاسلام فبازاء تلك المعاملة الشنيعة يضمن السلامة والدعة لكل فرد من أفراد البشر ، كائنا من كان ، ويهيء لهم فرص الرقى والازدهار فى كل ناحية من نواحى الحياة ، ويعاملهم بالحسنى مما لا تجد ولن تجد له نظيراً فى العالم .

لا استعمار ولا استغلال

ومما يجب علىّ أن أعيد ذكره فى هذا المقام أن « الجهاد » فى نظر الاسلام لا يكون إلا « فى سبيل الله » وابتغاء وجه الرب تعالى وحده . فلا يجوز للمسلمين أبداً أن يحذوا حذو الملوك المستبدين والطغاة المستكبرين إذا أنعم الله عليهم بالنصر والفتح فى جهادهم وغزواتهم . فان المسلم لا يقاتل ، ولا يجوز له أن يقاتل وهو مسلم ، ليتبوأ عرش الكسروية ، ويسخر البلاد والرقاب لمآربه ، ويُرخى لنفسه العنان يعيش فى رغد وينغمس فى اللذات والشهوات ، شأن الطغاة المستكبرين الذين يستغلون خيرات الأرض لأغراضهم ، ويتخذون من عباد الله المستضعفين مطيةً لأهوائهم وشهواتهم . لا ، والله ما ذلك من

الجهاد فى سبيل الله فى شئ ، إنما هو القتال فى سبيل الطاغوت ، والاسلام يتبرأ من مثل هذا الجهاد وأمثال تلك الحكومات الغاشمة. أما الجهاد الاسلامى فلا يزيد المسلمين إلا صبراً على المكاره وزهداً فى متع الدنيا ولذائذها. وفوق ذلك يكلفهم المشاق البالغة ويروضهم على بذل النفوس والنفائس ، والتجرد من مطامع الدنيا وشهواتها فى سبيل الله . وإذا أنعم الله على المسلمين بالفتوح وأيدهم بنصر من عنده ، فامتلكوا ناصية الأمر ، ودانت لهم الرقاب ، فلا تسل عما يحسه من يتولى الحكم من بين المسلمين الصادقين من ثقل المسؤولية وعبء الأمر . فانه ربما تمضى عليه أسابيع وشهور لا يتمتع فى النهار بالراحة ولا يذوق لذاذة الكرى فى الليالى حرصا على مصالح الرعية وتفقداً لأحوال العجزة المستضعفين منهم . وزد على ذلك أن الأمير المسلم لا يجوز له أبداً أن يتمتع بلذائذ الحياة الشهية ويتنعمَ بأبهة الملك وفخفخة الإمارة مكافأة على الجهود التى يبذلها فى إصلاح شأن الملك ومراقبة نظم الحكومة العديدة المتشعبة . مع أن الحكومات فى الدنيا لا يتهافت الناس عليها وعلى التدخل فى إدارتها وتسيير شؤونها

إلا حرصا على تلك الأبهة والفخفخة ولذائذ الحياة ومتعها .
فالذى يتولى الأمر من بين المسلمين لا فضل له على سائر رعيته
إلا بالتقوى ، ولا سلطان له عليهم إلا بأمر من الله ورسوله ،
فليس له أن يتبوأ عرش العظمة والجلالة ، ويتظاهر بعلو شأنه
وارتفاع منزلته ، ولا يجوز له أن يخضع رقاب الناس ويجعلهم
يذعنون لجبروته ؛ وكذلك ليس فى مكنته أن يتقدم خطوة
فى طريق يعارض الطريق الذى أوضحت معالمه الشريعةُ الغراء
ويحرك ساكناً من غير مستندٍ من كتاب الله وسنة نبيه ؛ ولا
يقدر أن يُعفى نفسه أو أحد أصدقائه وذوى قرباه من حق
يجب عليه أداؤه لأى رجل ، مهما يكن حقيراً أو صغيراً فى
المجتمع ؛ وأيضا لا يسوغ له أن يأخذ حبة من خردل أو يمتلك
شبراً من أرض من غير أن يكون له حق فيها . وحرام عليه
أن يأخذ من بيت مال المسلمين ما يفضل — ولو قليلاً — عما
يقوم بأود حياة رجل من أوساط الناس . والمسكين — وما
أحراه أن يسمى مسكينا ، وأى رجل أحق بالشفقة
وأقرب الى « المسكنة » من الذى يتولى أمر المسلمين وهو

محاط بهذه القيود الثقيلة — ليس له أن يشيد الأبنية الشاهقة ولا يباح له أن يتبسط فى المعيشة أو يأخذ حظه من نعيم الحياة وبُلهنيَة العيش ، فانه ما كان له أن يذهل عن واجباته ولو لحظة واحدة ، ولا يسعه أن يغفل ، ولا طرفة عين ، عن اليوم الذى يحضر فيه بين يدى ربه ويحاسب على أعماله حسابا عسيراً . وهذا الشعور بالمسئولية ، وهذه الخشية الالهية هى التى تملك عليه نفسه وأهواءه وتشرف عليه فى غدواته وروحاته . فان الحاكم المسلم يرى ويعتقد أنه محاسب بين يدى ربه على جميع أعماله : جليلها وحقيرها ، كبيرها وصغيرها ، فكأنى به يتفكر فى نفسه ما ذا يكون من أمرى فى ذلك اليوم العَسير إذا خُنتُ اليوم أمانة ، أو اقتطعت ذراعا من أرض ، أو تكبرت فى أرض الله بغير الحق ، وظهرت منى بوادر الظلم والعسف ، أو خالطت أعمالى شوائب الأثرة ، واتبعت الهوى فى ما أقوم به من عمل : يتفكر فى هذه كلها ، فيرتدع عنها ويمتنع خوفا على نفسه من سخط الله وغضبه . وايم الحق ان الذى يطمع فى الدنيا والتمتع بما فيها من لذات الحياة وأسباب العيش الرغيد ، لا يتجاسر

أبداً على أن يتولى أمر المسلمين بيده . وإذا رأيت أحداً يجترىء على ذلك ، وبه من طمع الدنيا والافتتان بزخارف الحياة العاجلة ما لا يطيق دفعه ، فاعلم أنه أخرق قليل العقل لا يعرف ما هو مُقبل عليه ولا يدرى ما هو بصدده ، لأن رجلاً من عامة رجال المسلمين يكسب رزقه بصناعة أو تجارة ، كيفما كانت ضئيلة ، هو أحسن حالا وأرغد عيشا من ولى أمر المسلمين ، فان الصانع أو التاجر يشتغل فى نهاره ويكسب أكثر مما يعطى خليفةُ المسلمين من بيت مال الحكومة ، وينام ملء جفونه طول الليل لا يُقِضّ عليه مضجعَه شىء . وأما الخليفة المسكين ، فلاحظ له من أسباب المعاش كحظ التاجر أو العامل ، ولا يتاح له أن يذوق لذاذة الكرى كعامة الرجال .

هذا هو الفرق الجوهرى أو الأساسى بين الحكومات الاسلامية وغيرها من الحكومات . فان الطبقة الحاكمة فى الحكومات غير الاسلامية تستبد بموارد الثراء وتستغل خيرات الأرض لمآربها وتتبوأ عرش الألوهية فى أرض الله طغيانا وكفراً . أما الحكوماتَ الاسلامية ، فهى بعكس هاتيك

الحكومات الجائرة ؛ فان الطبقة الحاكمة فى الحكومة الاسلامية لا يكون من همها إلا إسداء المعروف الى الرعية والترفيه عنهم من غير فرق بين عامتهم وخاصتهم ، ولا تجعل نصيبها من موارد الدولة إلا كنصيب عامة الناس . واذا وازنت بين ما كان يُمنح عمال الحكومة الاسلامية أو قضاتها وولاتها من الجرايات الشهرية وبين ما كان يعطى أمثالهم فى الحكومات المعاصرة لها من الرواتب الضخمة أو ما يناله موظفو الحكومات المستعمرة الحاضرة من المرتبات الباهظة ، تبين لك ما بين غزوات الاسلام وفتوحه وبين جشع الادارة التسلطية وخطتها الاستعمارية من الفوارق الروحية والجوهرية العظيمة ، فما كان لولاة المقاطعات الكبيرة أمثال خراسان والعراق والشام ومصر فى الحكومة الاسلامية من الرواتب ما يناله اليوم موظف صغير فى الحكومات الحاضرة . وناهيك مثلا بامير المؤمنين أبى بكر الصديق ، خليفة رسول الله ﷺ فانه كان يدبر شئون مملكة واسعة ، وله من بيت مال الحكومة

ما لا تزيد قيمته على مائة روبية شهريا [١] . وكذلك الفاروق عمر بن الخطاب ، فما كان يأخذ لقوته ولعياله أكثر من مائة وخمسين روبية شهريا [٢] ، مع أن خزانة المملكة فى عهده تكاد تَغَـصُّ بما كان ينهال عليها من موارد الغنيمة وجبايات الأرض مما أنعم الله عليهم بالفتوح الباهرة فى أراضى الروم وبلاد فارس . فالذى يظهر لأول وهلة أن الاسلام أيضا يفتح ويدوخ الأمصار والبلاد كالتسلطية والاستعمار ، ولكن شتان ما بينهما فى الجوهر والمبدإ والغاية :

لشتان مابين اليزيدين فى الندى يزيد سليم والأغر ابن حاتم
وأين الثرى من الثريا والأرض من السماء ؟

هـذه هى حقيقة « الجهاد » الذى أبدأوا وأعادوا فى تشويه سمعته وتحريف كلمته ، والذى طالما سمعتم فيه شيئا كثيرا . فان قلتم : فأين الاسلام الذى بينت خصائصه فى ما تقدم ؟ وأين « الحزب الاسلامى » الذى فصلت القول فى مقوماته

---

(١) أى نحو سبعة جنيهات (٢) نحو أحد عشر جنيها

وواجباته ؟ وفى أى أرض دُفن تصور الجهاد الحقيق الذى كشفت الغطاء عن وجهه آنفا؟ وما بالنا نجد بلاد المسلمين كلها خلوا من هذه الفكرة وذلك التصور الأسمى ؟ قلت : الذنب ليس بذنبنا والتبعة فى ذلك ليست علينا . إنما الذنب ذنب الذين حادوا بالمسلمين عن الصراط السوى وهدفهم الحقيق ، وعللوهم بالتعاويذ والتمائم والسبحات والرياضات ، والذين منوا المسلمين بالأباطيل والترهات ، ووعدوهم بطرق للنجاة سهلة تريحهم من أهوال الجهاد وشدائد الكفاح ، فألجأوهم الى قبور وزوايا ليتوسلوا بها وبرجالها الى الغاية المنشودة من السعادة الأبدية ؛ والتبعة على الذين شغلوهم عن أصول الاسلام ومبادئه الكلية الشاملة ، وصرفوا أبصارهم الى مسائل من فروع الفقه لاتنقع من صدى ولا تسمن من جوع فى إحياء قواعد الاسلام ، حتى نسوا ما خلقوا لأجله ، وذهلوا عن الغاية السامية التى يدعو اليها الاسلام وجعلوها نسيا منسيا . وإن أردت الاستزادة من أسباب تقلص ظل الاسلام وضئولة نفوذ الحزب الاسلامى اليوم ، فارجع ببصرك الى الأمراء والزعماء

والقواد الذين يظهرون إيمانهم بكتاب الله وبرسوله ﷺ ؛ لكنه مما يؤسف له أنهم لا يرون من حق الكتاب العزيز الشريعة التي جاء بها النبي الأمي العربي ﷺ على أنفسهم غير أن يشتركوا في حفلات المولد النبوي تارة وأن يدعوا تارة أخرى بعض حفاظ القرآن ليقرأوا ختمة أو ختمتين في بيوتهم ترفيها عن أرواح ذوي قرباهم ؛ وإن سمحت بهم أنفسهم ألقوا خطبا في تمجيد الاسلام والثناء على تعاليمه كما يثني الشعراء اليوم على الناس ويكيلون لهم المدح جزافا . أما العمل بهذه الشريعة والسعي وراء تنفيذها في العالم فليسوا من ذلك في ورد ولا صدر بل يحسبون أنفسهم كأن الله لم يكلفهم بشيء من ذلك . وذلك أن نفوسهم غير مستعدة أصلاً للتقيد بهذه القيود وتحمل أعباء هذه المسئوليات التي كلف الله بها عباده ، والتي يلقيها الاسلام على الذين يؤمنون به ويدعون اتباعه ، فانهم يتمنون حياة رغيدة ويبتغون طريقا للنجاة سهلا .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المطبعة السلفية

٢١ شارع الفتح بجزيرة الروضة تليفون ٩٧٣٦٤

منشورات دار العروبة للدعوة الاسلاميه بباكستان

(تقوم بنشرها فى مصر لجنة الشباب المسلم)

١ — الدين القيم صدر (ونفدت نسخه)

٢ — نظرية الإسلام السياسية »

٣ — منهاج الإنقلاب الإسلامى »

٤ — الجهاد فى سبيل الله »

٥ — معضلات الاقتصاد وحلها فى الإسلام (تحت الطبع)

٦ — شهادة الحق »

٧ — نظام الحياة فى الإسلام »

٨ — الإسلام والجاهلية »

١٠ — الإسلام ودعوته »

عنواننا بباكستان :

دار العروبة للدعوة الاسلامية

راولبندى Rawlpindi

(باكستان) (Pskistan)